رافد جبوري | Rafid Jaboori*

ملامح الخطاب والسياسات الشيعية في العراق بعد سقوط الموصل

Aspects of Shia Discourse and Policies in Iraq following the Fall of Mosul

يحلل البحث مضمون خطاب نماذج نوعية منتخبة وإشارات لأصوات ومصادر شيعية مهمة في العراق، بعد سقوط الموصل ومدن أخرى بيد تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" عام 2014، ويضعها في سياقها التاريخي والسياسي. ويوفر البحث خلفية تاريخية لتواصل هذه القوى مع جماهيرها، وأهمية ظهور وسائل جديدة للتواصل، مثل صلاة الجمعة وخطبتها التي اكتسبت أهمية كبيرة ومتزايدة، وتحديدًا منذ عام 2014، حينما أصبح الالتفاف الشيعي خلف رسائل القيادات الدينية أكثر دلالة. كما يدرس البحث صعود قوة جديدة متمثلة بالمجاميع المسلحة الشيعية المرتبطة بالحرس الثوري الإيراني والمنضوية تحت لواء الحشد الشعبي، إضافة إلى المرجعية الدينية الشيعية العليا التي يتزعمها آية الله علي السيستاني والقوى السياسية الشيعية (التقليدية). وقد توصل البحث إلى استنتاجات تشير إلى التغيرات الأهم في خطابات القوى الشيعية الرئيسة في العراق وتأثيرها، ويقدم تصورًا لأهم التوجهات المستقبلية في هذه الساحة.

كلمات مفتاحية: العراق، الشيعة، الحشد الشعبي، سقوط الموصل، تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام".

The paper provides indications and analysis of the positions of the most influential Shia powers and parties in Iraq after the fall of the predominantly Sunni city of Mosul and the rise of the Islamic State group in 2014. In addition to the Najaf-based supreme Shia religious authority led by ayatollah Ali al-Sistani, the Shia parties represented in government since 2003, the paper shed light on the increasingly powerful Iran-backed armed groups Popular Mobilization (Hashd Sha'abi) and how their appeal, visibility and influence had changed after the fall of Mosul.

The question of the Iraqi national identity and how it interacts with the Shia identity is addressed in the paper in light of the discourse of the Shia powers and relations between Shia Iraqis and other communities.

Keywords: Iraq, Shia, Hashd Sha'abi, the Fall of Mosul, ISIL.

* باحث عراقي، مخص بدراسة الجماعات المتشددة في الشرق الأوسط.

* Iraqi Researcher, Specialized in Studying the Middle Eastern Radical Groups .

مقدمة

مثّل سقوط الموصل وتكريت ومناطق أخرى ذات غالبية عربية سنّية في العراق، بين يومي 9 و11 حزيران/ يونيو 2014، أكبر انهيار أمني عرفه العراق منذ عام 2003. فمع سقوط مدينة تكريت مركز محافظة صلاح الدين وأجزاء أخرى من المحافظة، قُرع ناقوس خطر كبير بالنسبة إلى الشيعة؛ فقد أصبحت مدينة سامراء ذات الغالبية السنّية، والتي تضم الحضرة العسكرية المقدسة لدى الشيعة، تحت خطر السقوط المباشر بأيدي مسلحي تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام". أعاد هذا الأمر مخاوف الشيعة من تعرض الحضرة إلى الاعتداء، خاصة أنها قد تعرضت للتفجير في شباط/ فبراير 2006، في حادث سجل محطة كبيرة في مسار العنف الطائفي في العراق؛ ذلك أنه استثار أعمال انتقام طائفية من مليشيات شيعية غاضبة في بغداد خاصة وفي أماكن أخرى ضد مساجد ومدنيين سنّة[1].

أمّا بغداد، فإضافة إلى أهميتها السياسية، فهي تضم أيضًا وتحديدًا في طرفها الشمالي مدينة الكاظمية، وفيها مزار آخر مقدّس لدى الشيعة وهو الحضرة الكاظمية، وبها ضريح إمامين من أئمة الشيعة الإثني عشرية، الإمام السابع موسى الكاظم والتاسع محمد الجواد.

مع تداخل التهديد السياسي لمركز الحكم العراقي الذي يسيطر عليه الشيعة ولمواقع دينية مقدسة، استفز الوجدان العام الشيعي، وتحركت عواطف مختلفة حتى في أوساط علمانية شيعية صدمت بتهديد تنظيم الدولة وسرعة اندفاع مقاتليه[2].

مع إعلان رئيس الوزراء العراقي نوري المالكي حالة الطوارئ، كانت فرق عسكرية عراقية عديدة قد انهارت بينما اختلت فرق أخرى فتقدمت المجموعات الشيعية المسلحة، والتي حظيت بدعم المالكي، لتنتشر في مناطق بغداد وصلاح الدين ومحافظات أخرى شكلت خطوط تماس مع مسلحي تنظيم الدولة الذي أعلن أن هدفه لا يقتصر على المناطق ذات الغالبية السنّية من العراق، بل يمتد إلى بغداد والنجف وكربلاء، وهي المدن التي تضم كما هو معروف المراقد التي يقدسها المسلمون الشيعة.

على عكس ما حصل في الاستجابة لتفجير عام 2006 من عنف منفلت وسريع نحو أهداف جوامع سنية ومدنيين سنّة، اتسمت الاستجابة الشيعية عمومًا هذه المرة بالتركيز في مناطق التماس القتالية؛ أصبحت سامراء مركزًا رئيسًا للدفاع (الشيعي)، وعلى مدى الأيام والأسابيع تركز فيها مقاتلو الفصائل الشيعية مع عناصر الحرس الثوري الإيراني الداعمة لهم. وقد ظهر التضامن المذهبي بين إيران وشيعة العراق في تلك اللحظات الحاسمة[3]. لكنّ ما كان يحرك مصالح إيران، إضافة إلى العامل المذهبي، كان مصلحتها الإستراتيجية وأمنها؛ لذا امتدت مساعدتها إلى الأكراد أيضًا[4].

يرصد هذا البحث أهم اتجاهات القوى الشيعية الرئيسة في العراق في التعامل مع أزمة سقوط الموصل والمدن الأخرى ذات الغالبية العربية السنّية.

تأسيس الحشد الشعبي

1. الفتوى

مع الخطر الوجودي الذي مثّله صعود تنظيم الدولة، جاءت الفتوى النادرة للمرجع الشيعي الأعلى علي السيستاني بالجهاد الكفائي. وقد مثّلت هذه الفتوى منعطفًا تاريخيًّا مهمًّا في علاقة المرجعية

1 Michael Howard, "Sectarian Violence Explodes after Attack on Mosque," *The Guardian*, 24/2/2006, accessed on 12/1/2017, at: http://bit.ly/2jxNu9h
وتضم الحضرة العسكرية ضريحي الإمامين المقدسين لدى الشيعة، وهما العاشر علي الهادي والحادي عشر الحسن العسكري. ويعتقد الشيعة أنها تضم أيضًا المكان الذي اختفى فيه إمامهم الثاني عشر (الإمام الغائب) أو المهدي المنتظر الذي يعتقدون عودته قبيل نهاية العالم.

2 لا يعني هذا بطبيعة الحال أن كل العلمانيين الشيعة أصبحوا طائفيين، لكن التهديد الذي تعرضت له هويتهم المزدوجة الشيعية - العراقية كان واضحًا. رصد الباحث ذلك في ازدياد التعبير بوضوح عن الهوية الشيعية عند صحافيين وإعلاميين يعملون في مؤسسات ذات هوية وخط تحريري علمانيين سواء في مقالاتهم أو برامجهم التلفزيونية والإذاعية أو بصورة أوضح على مواقع التواصل الاجتماعي. وفي لقاء مع أبو مهدي المهندس نائب رئيس هيئة الحشد الشعبي، تحدث أحد الإعلاميين العاملين في قناة **آسيا** ذات الاتجاه العلماني الشيعي بأنه ومن معه في مقهى رخيتة - وهو ملتقى معروف للنخبة الثقافية العلمانية في بغداد - كانوا مصدومين ويناقشون تداعيات سقوط الموصل في المقهى، وكيف أن هذا يحصل في زمن (الحكومة الشيعية) بحسب تعبيره، لكنّ أحد زملائه طمأنه بأن أبو مهدي المهندس موجود في مناطق القتال الآن. للاطلاع على اللقاء كاملًا وفيه نماذج أخرى لخطاب (علمانيين) شيعة مع الحشد الشعبي وقادتهم انظر: "لقاء أبو مهدي المهندس مع الاعلاميين لقاء كامل"، يوتيوب، 2015/11/2، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kCMcLF
ومن أهم المثقفين الشيعة الذين عبّروا بشدة عن خط مدافع عن الحشد الشعبي الكاتب محمد غازي الأخرس في أكثر من موقع ومناسبة من أبلغها تعبيرًا هذا المقال المنشور في صحيفة **الصباح** شبه الرسمية، انظر: محمد غازي الأخرس، "الحشد الشعبي"، **الصباح**، 2014/12/3، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kIBlT7

3 "روحاني: إيران لن تتردد في التدخل في العراق لحماية المراقد المقدسة بالعراق"، **رويترز**، 2014/6/18، شوهد في 2017/2/9، في:
http://bit.ly/2kuva40
وقد أفاد أحد المراسلين الصحافيين كان في سامراء في الأسابيع التي تلت في مقابلة مع الباحث أن الحضرة العسكرية، وهي مزار شيعي مقدس في سامراء، كانت ممتلئة بعناصر إيرانية تعمل جنبًا إلى جنب مع المجاميع المسلحة الشيعية العراقية. وعن توعد القيادي باسم تنظيم الدولة أبو محمد العدناني لمد المعركة إلى بغداد والنجف وكربلاء، انظر: "بيان للناطق باسم الدولة الإسلامية... دعوة للتواضع ووعد باستمرار الزحف نحو بغداد"، فرانس 24، 2014/6/12، شوهد في 2017/1/12، في:
http://f24.my/2ifbkKO

4 أشاد بذلك رئيس إقليم كردستان مسعود بارزاني قائلًا إن إيران هي أول من ساعد إقليم كردستان بتقديم الأسلحة له لقتال تنظيم الدولة. من المهم هنا أن نلاحظ أن برزاني هو الزعيم الكردي الأقل قربًا لإيران إذا ما قورن بالحزب الكردي الرئيس الآخر، حزب الاتحاد الوطني الكردستاني الذي يتزعمه الرئيس العراقي السابق جلال الطالباني وعائلته، انظر: "بارزاني: إيران أول دولة قدمت أسلحة لجيش شمال العراق"، **القدس العربي**، 2014/8/26، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kCVTtK

الشيعية التقليدية التي يتزعمها السيستاني بالشأن العام؛ إذ تدفق بعدها مباشرة عشرات الآلاف من الشباب الشيعة ليلتحقوا بجهاد الدفاع عن بغداد وسامراء والمناطق الأخرى في وسط العراق وجنوبه التي باتت تحت التهديد المباشر. وقد قرئت فتوى السيستاني على لسان ممثله عبد المهدي الكربلائي وهو أحد خطيبي صلاة الجمعة في كربلاء. ومنذ ذلك الحين، تعزز دور منبر صلاة الجمعة، وباتت رسائله الأسبوعية مؤشرًا مهمًّا على رأي السلطة الروحية في الوسط الشيعي المهم والأكبر في العراق، وقد تمتع منذ 2003 بتضامن سياسي كان لإيران والمرجعية الشيعية دور أساسي في إدامته[5].

> المرجعية لم تكن راغبة في أن يقوم المالكي، والذي دخل في أزمات حادة مع الأوساط السنّية والكردية وجزء من الشيعية، بتشكيل حكومة ثالثة بعد انتخابات عام 2014

2. المرجعية التقليدية وصلاة الجمعة

في أوساط المرجعيات الشيعية، على وجه العموم، اتجاهان. وهما الاتجاه التقليدي الذي لا يميل إلى التدخل المباشر في السياسة، ويتبع الطرق التقليدية في التواصل مع العامة، مثل اللقاءات المباشرة وكتابة الرسائل والفتاوى والتعليقات والتعليمات والتواصل عن طريق الوكلاء. ويقف المرجع الشيعي الأعلى آية الله علي السيستاني على قمة هذا الاتجاه اليوم ومعه المراجع الثلاثة الملتفين حوله في النجف[6]. أمّا الاتجاه الآخر فهو ميّال إلى التصدي للشؤون العامة والسياسية بصفة مباشرة ومنتظمة، وقد مثله في العراق في العهود الأخيرة رجلا الدين محمد باقر الصدر وابن عمه محمد صادق الصدر والد مقتدى الصدر.

يرى الاتجاه المرجعي التقليدي أنّ صلاة الجمعة أمر من اختصاصات الإمام الغائب، وهو في العقيدة الشيعية كما هو معلوم الإمام الشيعي الثاني عشر محمد المهدي. لذلك لم تعقد صلاة الجمعة أو خطبتها في السواد الأعظم من مساجد الشيعية طوال تاريخ العراق الحديث، حتى جاء المرجع محمد الصدر في تسعينيات القرن الماضي وأعلن أنّ شروط إقامة الجمعة موجودة وبدأ بعقدها كل أسبوع، وتحولت إلى وسيلة تواصل مهمة ومباشرة مع الجماهير من مقره في النجف أو من شبكة الوكلاء المهمة التي أنشأها في كل مدن وسط العراق وجنوبه[7].

بعد عام 2003، وبعد بروز الأحزاب الدينية الشيعية وصعود الهوية الشيعية السياسية وفوز الأحزاب التي تتبنى هذا الهوية وتدعي تمثيلها بالعدد الأكبر من المقاعد في كل الانتخابات التي تلت احتلال العراق، برزت أهمية صوت القيادة الدينية الشيعية، وتعطش الإعلام من أجل الوصول إليها. وإذا كانت المرجعية التقليدية قد حافظت في البداية على خطها الذي لا يرى وجوب انعقاد الجمعة في زمن غياب المهدي، فإن التيار الصدري وتيارات أخرى استخدمت منبر الجمعة لنشر رسائلها بكثافة والتواصل مع الجماهير والعالم.

تغير هذا الوضع مع انحسار السيطرة الميدانية للتيار الصدري على العتبات المقدسة الشيعية أو جوارها، بعد الحملة التي شنها ضده رئيس الوزراء نوري المالكي عام 2008. لكنّ المرجعية العليا بقيادة السيستاني اختارت أن يكون منبر إيصال رسائلها من كربلاء وليس النجف، فأصبحت الخطب في السنوات الأخيرة تقرأ على لسان رجلي الدين المقيمين في كربلاء عبد المهدي الكربلائي وأحمد الصافي[8].

دفعت فتوى الجهاد الكفائي بمنبر الجمعة في كربلاء إلى مستوى جديد. فبعد أن كان المضمون السياسي في خطبة الجمعة عموميًا معظم الأحيان، باتت رسائله السياسية بعد سقوط الموصل أكثر مباشرة، ولها صلة بالتطورات التي تحصل في كل أسبوع في المشهد السياسي والاقتصادي والأمني في العراق.

المسؤولية الرعوية الدينية للمرجعية الشيعية واضحة، إلّا أنّ المتابع نادرًا ما يرصد إشارة مباشرة وصريحة إلى الهوية الشيعية في الجزء

5 ورد تعبير الواجب الكفائي في نص الفتوى أي إنه لا يشمل جميع المؤمنين حكمًا، بل ينتفي عندما يتوافر العدد الكافي للقيام به من بين المؤمنين. دعت الفتوى كل العراقيين إلى التوحد والتضامن، ونصت على أن الدفاع عن الوطن ليس مسؤولية طائفة واحدة بل كل العراق، خصوصًا أنهم أعلنوا أنهم يريدون السيطرة على بغداد والجنوب. انظر: "السيد السيستاني يفتي بالجهاد الكفائي"، يوتيوب، 2014/6/14، شوهد في 2017/3/16، في: http://bit.ly/2n2fqHd

6 آية الله علي الحسيني السيستاني، من أصول إيرانية، وهو المرجع الأشد تأثيرًا والأكثر أتباعًا، ويلتف حوله مراجع ثلاثة؛ هم آيات الله محمد سعيد الحكيم (عربي)، ومحمد إسحاق الفياض (أفغاني الأصل)، وبشير النجفي (باكستاني).

7 لمعلومات أوفى عن محمد باقر الصدر، انظر:
Patrick Cockburn, *Moqtada al-Sadr and the Fall of Iraq* (London: Faber and Faber, 2008).
انظر أيضًا: عباس الزيدي المياحي، **السفير الخامس: استعراض لحياة ومرجعية الإمام الصدر والعلاقة بين الحوزة والجماهير** (بيروت: عباس الزيدي المياحي، 2001).

8 وكلاهما ليس من المراجع وليس حتى من المتقدمين في الاجتهاد في العلوم الدينية، ولكنّ الكربلائي وكيل معتمد للسيستاني، والصافي رجل دين معروف بنشاطه وحضوره المحلي في كربلاء، وقد انتخب عضوًا في الجمعية الوطنية (البرلمان) الذي كان مسؤولًا عن كتابة الدستور العراقي الذي أقر عام 2005. وجاء اختيار كربلاء، لأن السيستاني لا يقيم فيها؛ لأنه إذا أقيمت في المدينة التي يقيم فيها وجب عليه وهو المرجع الأكبر أن يقوم بها وبخطبتها، وهو ما لا يرغب فيه المراجع التقليديون، لأنهم لا يوجبونها أصلًا، فهي من صلاحيات الإمام الغائب في معتقدهم، لكن وجهوا بإقامتها بصفتها منبرًا للتواصل.

السياسي من رسائلها في خطب الجمعة، بل إنّ المحتوى الذي يشير إلى القواسم المشتركة الوطنية العراقية أكبر كثيرًا[9].

كان واضحًا ومعلومًا لدى الأوساط الشيعية أنّ المرجعية لم تكن راغبة في أن يقوم المالكي، والذي دخل في أزمات حادة مع الأوساط السنّية والكردية وجزء من الشيعية، بتشكيل حكومة ثالثة بعد انتخابات عام 2014. وقد كانت خطب الجمعة الوسيلة الأساسية لإيصال هذه الرسالة إلى الجماهير، ولكن أيضًا من غير التصريح بها. ولكنّ استمرار تمسك المالكي بالرئاسة دفع بالخطب إلى الاقتراب من التصريح، فجاءت عبارات أصبحت شهيرة مثل "المجرب لا يجرب"، و"على بعض المسؤولين الرفيعين عدم التمسك بمناصبهم" رسائل لا تقبل الشك، دالة على دعوة المرجعية إلى تغيير رئيس الوزراء. وقد كان هذا في النهاية عاملًا حاسمًا من العوامل التي أدت إلى استبدال المالكي بسياسي آخر هو حيدر العبادي، والذي وإن كان من حزب المالكي نفسه، فقد عدّ أكثر اعتدالًا وتصالحية مع المكونات العراقية الأخرى[10].

3. الاحتجاجات الشعبية

اندلعت في صيف عام 2015 احتجاجات واسعة في بغداد ومدن أخرى ذات غالبية شيعية وسط العراق وجنوبه. طالب المتظاهرون، وقد كان الفاعلون منهم من تيارات أو توجهات علمانية، بالإصلاح الحكومي، ورفعوا شعارات عابرة للطائفية. اكتسبت هذه التظاهرات زخمًا مهمًا في أسبوعها الثاني مع تأييد المرجعية لها في خطبتها؛ إذ دعت رئيس الوزراء العراقي العبادي بصورة مباشرة إلى الإصلاح وضرب الفساد المستشري في العراق بـ "يد من حديد"[11]. وعلى الرغم من مشاركة الكثير من سنّة بغداد في التظاهرات، والدور الأساسي الذي كان للتيارات العلمانية مثل الحزب الشيوعي العراقي في تنظيمها وقيادتها، فإنها كانت في العموم ظاهرة شيعية وطنية عراقية. ذلك أنها مثلًا كانت متصالحة بل وداعمة دعمًا كبيرًا لمجاميع الحشد الشعبي التي تتصدرها مجموعات مسلحة شيعية، حتى إنّ بعضهم وصف التظاهرات بالحشد المدني استخدامًا لمفردة الحشد التي بات لها معنى إيجابي لدى الشيعة العراقيين[12].

إنّ جزءًا كبيرًا من صعوبة قياس اندماج السنّة العراقيين مع الحركة خارج بغداد يعود إلى وقوع معظم المحافظات التي تسكنها غالبية سنّية في العراق تحت سيطرة تنظيم الدولة، وعدم إمكانية قياس الرأي العام واتجاهاته هناك. في العموم، كان المضمون الوطني العراقي الرافض للطائفية السياسية هو السائد في التظاهرات. واستمر دعم المرجعية لها في الأسابيع الأولى، لكن الإشارات المباشرة توقفت بعد أسابيع. لم يكن هذا التوقف يعني رفع الدعم عن التظاهرات، بل جاء على ما يبدو بعد إدراك المرجعية أن التظاهرات أصبحت قوية ولا تحتاج إلى استمرار التذكير بدعمها كل يوم جمعة. أضف إلى ذلك عاملًا آخر مهمًا وهو عدم تبلور إصلاحات حكومية أو تغييرات حقيقية لها مفعول التعامل مع أزمات العراق السياسية والأمنية والاقتصادية نتيجة للتظاهرات؛ ما استوقف المرجعية التي لا تريد بطبيعة الحال لرسائلها الموجهة إلى السياسيين والعامة أن تفقد قوتها وتأثيرها، وهذا وارد إن تكررت ولم تتحول إلى إنجازات وتغييرات.

بعد أكثر من سنة ونصف السنة على ممارسة هذا النهج من الخطب ذات الرسائل السياسية المكثفة، والتي أصبحت محط اهتمام الإعلام، وصلت المرجعية إلى منعطف يبدو أنها شعرت فيه بعدم فاعلية هذه الطريقة في إحداث التغيير المنشود؛ فعلقت إصدار الخطب السياسية بعد تصريح أعلنت فيه إحباطها الصريح؛ إذ ورد على لسان ممثلها أنّ المرجعية طالبت باستمرار الحكومة في القيام بإصلاح حقيقي ومحاربة الفساد، ولكن بلا جدوى[13].

دوافع الاستجابة الشيعية لتهديد سقوط الموصل

1. تعقيدات الدافع الديني – الطائفي – الوطني

منذ تأسيس الدولة الحديثة في العراق، انخرط الشيعة في صفوف التنظيمات والحركات السياسية العلمانية، وكان منهم قادة معروفون

9 للاطلاع على خطب الجمعة للمرجعية، انظر: **خطب الجمعة (الأرشيف)**، موقع العتبة الحسينية المقدسة، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lflXhz

10 "المرجعية ترفع الغطاء عن المالكي"، جريدة **الأخبار** اللبنانية، 2014/7/7، شوهد في 2017/3/16، في:
http://bit.ly/2n2u1CE

11 محمد شفيق، "المرجعية تطالب العبادي أن يكون أكثر "جرأة وشجاعة" والضرب بيد من حديد"، السومرية نيوز، 2015/8/7، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2jXvauI

12 "الحشد المدني: انطلاقتنا الرسمية في تظاهرة الغد ومطالبنا الأساسية إقالة الوزراء الفاشلين"، المدى برس، 2015/8/13، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2leCKRU

13 حمد جاسم محمد، "إصلاحات العبادي المتعثرة بين المطالب الشعبية ورفض الكتل السياسية"، شبكة النبأ المعلوماتية، شوهد في 2017/3/1، في:
http://bit.ly/2m3l6AW

في هذه التنظيمات[14]. ومع صعود الإسلام السياسي في سبعينيات القرن الماضي، برزت الهوية الشيعية المتمايزة. وإن كان منظروها الأوائل قد ركزوا على هوية إسلامية جامعة، إلّا أنّ من وصل إلى السلطة من شيعة العراق رأى ما وصفه بالحرمان الاقتصادي والسياسي الذي تعرض له الشيعة على مدى تاريخ العراق الحديث سببًا في انبعاث الهويات الفرعية بعد 2003، ولكن فقط بصفتها مرحلة نمو من أجل الوصول إلى هوية وطنية.

> اختلط الدافع الوطني بالدافع الديني - المذهبي في استجابة القوى الشيعية لسقوط الموصل

اختلط الدافع الوطني بالدافع الديني - المذهبي في استجابة القوى الشيعية لسقوط الموصل. ولأن الأزمة كانت خطيرة وكبيرة، فقد كانت استجابات الأطراف الشيعية مأزومة وغاضبة من أي تشكيك في الجزء الوطني من الدوافع. تلزم فتوى الجهاد الكفائي، مثل أي فتوى أخرى، بطبيعة الحال مقلدي رجل الدين الذي يطلقها وأتباعه؛ وفي حالة العراق، فقد كان السيد السيستاني والمراجع المقربون له قد أصدروها لكن الحكومة العراقية التي يقودها والجماعات الشيعية السياسية والمسلحة المؤثرة قد رفعت الفتوى شعارًا وسندًا دينيًا – وطنيًا، وردت بتشدد على أي صوت مشكك[15].

2. الشيعة والتقليد

يرتبط المؤمنون الشيعة بمراجع الدين برباط أقوى من المسلمين السنّة هو رباط الاتباع المباشر المعروف بالتقليد. وهو يعني بإيجاز أن يختار المؤمن مع وصوله سن الشباب مرجعًا معيّنًا من المراجع الأحياء المعروفين، ويقوم باتباع تعاليمه الدينية وما يصدره من فتاوى، والعودة إليه فيما يستجد من المسائل والحالات والمواقيت مثل بداية شهر رمضان وعيدي الفطر والأضحى. وإذا كان معظم الشيعة في العراق يقلد آية الله السيستاني، فإن أغلبية هذه القوى الشيعية المؤثرة سياسيًا وعسكريًا اليوم، التي استجابت للتهديد العسكري الذي مثله سقوط الموصل والمناطق الأخرى، لا تقلد السيستاني، بل إنّها تعلن تقليدها الديني للمرشد الأعلى لإيران علي الخامنئي. لكنّها مع ذلك رفعت شعار الفتوى واستخدمته بكثافة في إطار تحشيدها العام للدعم في إطار المواجهة مع تنظيم الدولة، ولكن أيضًا وبطريقة غير مباشرة مع كل من عارض مشروعها السياسي.

ومن الممكن رصد اتجاه واضح في الصراع على تفسير الفتوى وخطاب السيستاني عمومًا منذ سقوط الموصل. لقد كانت خطب الجمعة للمرجعية تنص بوضوح على لفظة الحشد الشعبي، وهي المنظمة التي أسسها المالكي إطارًا لتحرك الجماعات الشيعية المسلحة واستمرت حكومة العبادي في دعمها، إلّا أنها كفّت عن استخدام هذا المصطلح فجأة ليختفي تمامًا من محتوى خطابها ويحل محلة تعبير المتطوعين الذي يختلف بوضوح في دلالته. يمثل مصطلح المتطوعين انتباهًا من المرجعية إلى دعوتها الأولى للمدنيين بالتطوع في صفوف القوات المسلحة، بينما أصبح الحشد الشعبي يمثّل بوضوح الجماعات المسلحة الشيعية العقائدية ومشروعها الذي لا يتطابق مع الخطوط المعروفة لمرجعية السيستاني، في النأي عن المشاريع السياسية المباشرة والارتباط بحركات سياسية مسلحة ذات ارتباطات واضحة بإيران[16].

التنازع السياسي الشيعي حول الحشد الشعبي

1. المالكي والجماعات المسلحة

تمثلت إستراتيجية المالكي، منذ ترسّخت قاعدة حكمه بعد ضربه لجيش المهدي التابع لمقتدى الصدر عام 2008، بتجريد منافسيه الرئيسين في الساحة الشيعية، المجلس الأعلى الإسلامي العراقي بزعامة عمار الحكيم وتيار مقتدى الصدر، من ذراعيهما المسلحتين. وقد تم له ذلك مع انفصال منظمة بدر عن المجلس الأعلى عام 2009، وانضمامها إلى ائتلاف دولة القانون برعامة المالكي. أمّا التيار الصدري، فقد فتح المجال أمام المنشقين عن جيش المهدي التابع له، وتم ضربه عام 2008. وقد تصدر المنشقون منظمة (عصائب أهل الحق) التي يتزعمها قيس الخزعلي، والتي تحالفت مع المالكي منخرطة في ما

14 ضم حزب البعث والحزب الشيوعي العراقي، القوتان العلمانيتان الكبيرتان في تاريخ العراق الحديث، ملايين الأعضاء الشيعة. وكان أول أمين عام للبعث فؤاد الركابي شيعيًا، وكذلك سكرتير الحزب الشيوعي في الخمسينيات والستينيات سلام عادل، ومحمد مهدي كبة زعيم حزب الاستقلال. وفي العهود الأخيرة ضمت قيادة حزب البعث أعضاء شيعة بارزين مثل سعدون حمادي ومحمد سعيد الصحاف. لكنّ كل من تولى قمة هرم السلطة في العراق منذ تأسيس دولته الحديثة عام 1921 حتى عام 2003 كان ينتمي إلى عائلة سنّية.

15 للاطلاع مثلًا على كلمة للأمين العام لعصائب أهل الحق قيس الخزعلي، انظر: "سماحة الشيخ قيس الخزعلي الحشد الشعبي المقاوم منجز وطني بامتياز"، يوتيوب، 2015/12/12، شوهد في 2017/1/12، في:
http://bit.ly/2j3gxm3

16 خطب الجمعة (الأرشيف).

سمي مبادرات المصالحة الوطنية[17]. مع سقوط الموصل، بانت بوضوح آثار الدعم الحكومي في صعود "بدر" و"العصائب"، بصفتهما أهم قوتين مقاتلتين في الميدان، وما زالتا تمثلان أقوى مجموعتين مسلحتين، وينتشر مسلحوهما في جبهات عديدة.

2. الجيش يتراجع - الحشد يتقدم

تأسست مديرية الحشد الشعبي، والتي أصبحت فيما بعد هيئة الحشد الشعبي، بقرار من المالكي بعد فتوى المرجعية. ولكنّ المجاميع المسلحة الشيعية كانت قد انطلقت فعلًا، وانتشرت في بغداد وجوارها مع سقوط الموصل؛ لتشكل خط الدفاع الأهم عن العاصمة العراقية، في وقت انهارت فيه القوات النظامية العراقية في أكثر من جبهة، واختلت فيه المعنويات بشدة في العاصمة بغداد نفسها[18].

كانت الفصائل البارزة الحضور، إضافة إلى بدر والعصائب، كتائب حزب الله كان أيضًا من التنظيمات التي انشقت مبكرًا عن جيش المهدي وسرايا الخراساني التي قادها حميد تقوي وهو أحد ضباط الحرس الثوري الإيراني، وحركة النجباء بزعامة أكرم الكعبي الذي كان قد انشق بدوره عن عصائب أهل الحق عام 2013.

3. الحشد بين التقليد الديني والبعد الإستراتيجي

وعلى الرغم من أنّ فتوى السيستاني أشارت بوضوح إلى أنّ على المتطوعين الالتحاق بالأجهزة الأمنية، فإن معظمهم انضم إلى المجاميع المسلحة ذات الإمكانيات الأكبر أو أصبح تحت تأثيرها. وعلى الرغم من أنّ تأكيد قادة رئيسيين في الحشد الشعبي أنهم ينفذون فقط فتوى السيستاني وإيحائهم بأن المتطوعين لم يدمجوا في تنظيماتهم حكمًا، فإن تدفق المتطوعين وقتالهم تحت قيادة منظمة وفر لهذه الجماعات عنصرًا بشريًا ما كانت لتحصل عليه في الأوضاع الطبيعية.

أحجمت القوى الغربية عن التدخل العسكري في أزمة سقوط الموصل والمناطق الأخرى ذات الغالبية السنّية في الشهرين الأولين، مدركة أنّ الأزمة جاءت على خلفية أزمة سياسية ذات أبعاد طائفية وقومية بين المالكي والسنّة والأكراد. وقد كانت الولايات المتحدة واضحة في أنها تنتظر تطورًا سياسيًا في بغداد، من أجل أن تتدخل عسكريًا. وقد جاء هذا التغير مع إزاحة المالكي عن الحكم، وتولي حيدر العبادي رئاسة الوزراء[19].

على الرغم من اعتماد الحكومة العراقية على الدعم الغربي، فإن خطاب الحشد الشعبي اتسم بنبرة شديدة العداء للولايات المتحدة، موجهًا تهمًا عديدة لها بالتقاعس عن محاربة تنظيم الدولة بجدية، وإثارة العداء للحشد الشعبي[20].

وإذا كانت حكومة العبادي قد جاءت بالتزام إنشاء "حرس وطني" خلال أشهر في المحافظات ذات الغالبية السنّية، من أجل حل الإشكال الذي حصل بسبب سوء العلاقة بين القوات الأمنية العراقية والسكان، والتي استغلها تنظيم الدولة في اندفاعته، فإن حكومة العبادي دخلت في عمليات تسوية سياسية تمخضت في النهاية عن مشروع لتشكيل حرس وطني في المحافظات جميعها. وقد تعرقل مرور المشروع في البرلمان؛ إذ لم ترضِ هذه الصيغة الشيعة القلقين من أي توسع عسكري في المناطق السنّية، ولا السنّة الذين لم يرضوا عن خضوع الحرس لسيطرة الحكومة المركزية وقد أرادوا له استقلالية مناطقية[21].

في الواقع، استمر الدعم الحكومي للحشد الشعبي، وقد تطور إداريًا تحت ظل حكومة العبادي من مديرية إلى هيئة يرأسها مستشار الأمن الوطني (فالح الفياض) ويكون رئيس الوزراء القائد الأعلى فيها[22].

4. موقف التيار الصدري

كان موقف زعيم التيار الصدري مقتدى الصدر متمايزًا عن الفصائل الشيعية الأخرى؛ والسبب الأهم يكمن في أنّ معظمها انشق عنه. وقد بقي هذا واقعًا مؤلمًا للصدر الذي شاهد مجموعة من أهم مساعديه والقادة الميدانيين في تياره تقود هذه المجموعات أو تقاتل

17 "الخزاعي: عصائب أهل الحق خاطبتنا للانضمام للمصالحة الوطنية"، السومرية نيوز، 2011/5/25، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kNMnG5

18 انظر مثلا: "قناة بلادي الفضائية ... برنامج لقاء خاص مع الشيخ أكرم الكعبي /الأمين العام لحركة النجباء 2015/11/6"، يوتيوب، 2015/11/7، شوهد في 2017/1/12، في:
http://bit.ly/2lji7Qz

19 نص مقابلة وزير الخارجية الأميركي جون كيري، انظر:
"John Kerry on Iraq: No Decision on 'American Force in a Vacuum'," *CBS News*, 242014/6/, accessed on 122017/1/, at:
http://cbsn.ws/2maEBng

20 في كلمة أمام كاميرات التلفزيون توعد نائب رئيس هيئة الحشد الشعبي أبو مهدي المهندس بـ (محاسبة) أميركا وقال: "لن نسكت على أميركا من الآن فصاعدا"، انظر تصريحه في: "كلمة أبو مهدي المهندس ضد التدخل الأمريكي"، يوتيوب، 2015/10/15، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kNYPpn

21 عبد الواحد طعمة، "البرلمان العراقي يفشل في إقرار قانون 'الحرس الوطني'"، **الحياة**، 2015/9/9، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kNPazc

22 "مجلس الوزراء العراقي يعتمد الحشد الشعبي هيئة رسمية"، العربية، 2015/4/7، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lmsymC

في صفوفها، وشاهد إيران وهي تدعم هذه المجاميع التي أعلنت انضمامها التام إلى المشروع الإيراني؛ دينيًا بتقليد المرشد الأعلى علي الخامنئي بصفته مرجعية دينية؛ وسياسيًا بالارتباط بالطروحات الإيرانية؛ وعسكريًا بتحصيل الدعم العسكري المستمر من الحرس الثوري الإيراني في مجالات التدريب والتسليح والدعم[23].

على هذه الخلفية المباشرة، وعلى أساس فكرة عروبة بل وعرقنة المرجعية التي كانت عنصرًا أساسيًا مبكرًا في صعود والد مقتدى السيد محمد الصدر للمرجعية في تسعينيات القرن الماضي، وأيضًا في سياق صراع مقتدى الصدر المر مع المالكي، اقترب الصدر من الأحزاب السنّية والعلمانية والكردية في السنوات الأخيرة؛ فأبدى تفهمًا لمطالب التظاهرات السنّية، قبل أن يتم فضها بالقوة ليفتح المجال لتنظيم الدولة، بينما تبلور حول المالكي رأي عام في قطاع واسع من الوسط الشيعي ينظر بشك بل وبإدانة للتظاهرات ويتبنى طروحات المالكي في أنها كانت مقرًا لتنظيم الدولة[24].

لذلك، كانت ردة فعل الصدر الأولى متمايزة، حين سقطت الموصل، وأعلن تشكيل سرايا السلام في بادرة بدا أنها تعاكس المجاميع المسلحة الأخرى؛ إذ قال بعد يوم من سقوط الموصل إنّ مهمة سرايا السلام ستكون حماية العتبات المقدسة الشيعية حصرًا، وأنه لن يخوض حربًا طائفية بمليشيات قذرة، في إشارة واضحة إلى تدفق المجاميع الشيعية الأخرى للقتال في المناطق السنّية والمختلطة. وأنّ الاسم الذي اتخذه الصدر ذو دلالة قصد الطمأنة أيضًا، فاختار اسمًا جديدًا هو سرايا السلام، وليس الأسماء السابقة التي تحرك تحت عنوانها مسلحو تياره مثل جيش المهدي واليوم الموعود[25].

وإذا كانت وسائل الإعلام في العراق وحتى في العالم العربي خضعت للضغط الشعبي الشيعي والحكومي العراقي الرافض لوصف المجاميع المسلحة الشيعية بالمليشيات، فإن الصدر استمر في ذلك هو وأتباعه، بل وغالبًا ما أردف وصفه بنعوت قبيحة مثل المليشيات القذرة أو الوقحة[26].

لكنّ التيار الصدري لم يستطع الصمود مع صعود النوعية العسكرية في الوسط الشيعي، خصوصًا بعد فتوى السيستاني والطريقة التي تبنتها بها المجاميع المسلحة؛ فأقام استعراضًا عسكريًا كبيرًا لمسلحي تياره في معقله في بغداد في مدينة الصدر ضم الآلاف من المسلحين. ومن ذلك الحين، شاركت سرايا السلام بصفة فصيل في الحشد الشعبي، لكنّها حافظت على استقلاليتها وعدم تحركها سياسيًّا مع باقي الفصائل. كما ركزت وجودها العسكري في مدينة سامراء وجوارها، وهي المدينة التي تضم مراقد شيعية، في انسجام مع الفكرة الأولى لتشكيلها، فيما توزعت باقي مجاميع الحشد الشعبي على جبهات متعددة[27].

الحشد الشعبي والعلاقة بين الشيعة والسنّة

1. المقاومة

على الرغم من التأثير الإيراني الكبير في الساحة السياسية الشيعية العراقية وأوساطها داخل العراق منذ عام 2003، فإنها وقعت أيديولوجيًا وإستراتيجيًا في وضع غريب؛ فالتنظيمات الشيعية الإسلامية العراقية انخرطت في المشروع الأميركي لإقامة نظام جديد في العراق على أسس الانتخابات، حتى أنّ فيلق بدر نفسه أعلن تحوله إلى منظمة سياسية تشارك في الانتخابات. وقد وصلت الأحزاب الدينية الشيعية العراقية إلى السلطة بفضل انخراطها الموحد في العمل السياسي، فيما رفعت التنظيمات السنّية راية "المقاومة" ذات الجاذبية الكبيرة.

دعمت إيران تمرد مقتدى الصدر وانتفاضاته ضد الأميركيين، لكنّ فكرة المقاومة بقيت مرتبطة بالمجاميع السنّية حيث المجتمع معاد بصورة عامة لنظام ما بعد 2003. أتى الحل الإيراني في النهاية من الانشقاقات التي حصلت داخل حركة مقتدى الصدر، في البداية من مساعديه الذين رفضوا قبوله مبادرات وقف إطلاق النار عام 2004، وتجميد جيش المهدي التابع له عام 2007[28].

وقد تصاعد عمل هذه الجماعات في السنوات الأخيرة للوجود الأميركي وعلى رأسها عصائب أهل الحق وكتائب حزب الله، وقد احتفلت هذه

---

23 "الصدر يهاجم "المليشيات الوقحة" المقاتلة إلى جانب حكومة بغداد: يذبحون ويعتدون ويشوهون سمعة الشيعة"، سي إن إن بالعربية، 2015/3/4، شوهد في 2017/2/8، في: http://cnn.it/2kCIa5W

24 "الشيعي مقتدى الصدر يشن هجوما على المالكي ويؤيد مظاهرات أهل الأنبار"، يوتيوب، 2013/1/4، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kIp7dj

25 عبد العزيز الطائي، "الصدر يشكل سرايا السلام "لحماية المقدسات" بالتنسيق مع الحكومة"، **العربي الجديد**، 2014/6/11، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2ljftu1

26 أسامة مهدي، "الصدر يتهم 'مليشيات' وقحة بذبح الأبرياء"، إيلاف، 2014/3/3، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kCK1rJ

27 أسامة الخفاجي، "بدء استعراض "سرايا السلام" لحماية المقدسات الدينية ودور العبادة لجميع الطوائف العراقية"، السومرية نيوز، 2014/6/21، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kRpl13

28 من الدراسات المهمة التي تتناول الانشقاق في الحركة الصدرية باللغة الإنكليزية الدراسة التالية:
Marisa Cohrane, *Iraq Report 12: The Fragmentation of the Sadrist Movement*, Institute for the Study of War (Washington DC: 2009).

الجماعات بالانسحاب الأميركي عام 2011، وادعت أنه يمثل نصرًا لها. لكن حتى ذلك لم يرسّخ فكرة شعار المقاومة ومبدأها داخل الوسط الشيعي حتى ظهور الحشد الشعبي.

في إشارة ذات دلالة مهمة وواضحة رمزيًا وإستراتيجيًا، اتخذت معظم المجاميع المسلحة المنضوية إلى لواء الحشد الشعبي أعلامًا تشبه إلى حدّ بعيد علم حزب الله اللبناني بحضور الذراع التي ترفع البندقية فيه. ويمثل حزب الله اللبناني أهم نجاح في سياسة مد التأثير الإيراني إقليميًا وإنشاء جماعات موالية لأيديولوجية ولاية الفقيه. بالنسبة إلى المجاميع الشيعية العراقية المنشقة عن تيار الصدر، مثل حزب الله النموذج الأهم للاتباع، مع أنّ العراق أكبر جغرافيًا وسكانيًا من لبنان كثيرًا. وعلى الرغم من أنّ الشيعة فيه يشكلون أغلبية سيطرت على المشهد السياسي منذ عام 2003، فإن فكرة المقاومة التي امتلكها حزب الله في لبنان وفق إستراتيجية منظمة دامت لسنوات ثمّ انخراطه في العمل السياسي البرلماني (منذ 1992) والحكومي (منذ 2005) كانت إلهامًا للمجاميع المسلحة الشيعية العراقية المنخرطة في الحشد الشعبي[29].

يقوم الخطاب الإعلامي للحشد الشعبي على مستوى وسائل الإعلام شبه الرسمية على تمجيده بصفته حاميًا للعراق ككل، لكنّ وسائل الإعلام الخاصة بالمجاميع المسلحة نفسها تقدم مصطلح المقاومة الإسلامية لوصف منظماتها. وفي العادة يتم استخدام المصطلحين (متلازمين أو منفصلين) في خطاب هذه المنظمات؛ فالمقاومة الإسلامية هي التعبير الأيديولوجي المفضل والحشد الشعبي هو التعبير ذو البعد الوطني والرسمي. وقد امتد هذا الخطاب ليضفي القدسية على الحشد الشعبي؛ إذ يظهر في خطاب مؤيديه بصيغة "الحشد الشعبي المقدس" عند الإشارة إليه. لكن من المهم هنا ملاحظة أنّ هذا المصطلح (المقدّس) لم يرد في خطاب المرجعية الشيعية، كما أنه لم يمتد ليشمل كل الشيعة وأدبياتهم وخطاباتهم.

السياق الأهم هنا هو أنّ تحركًا إعلاميًا واسعًا تقوم به مؤسسات الإعلام التابعة مباشرة لفصائل الحشد الشعبي أو المتعاطفة معها في تحشيد الرأي العام الشيعي، وما أمكن من قطاعات الرأي العام العراقي الأخرى، خلف فكرة تقديس الحشد الشعبي وتقديمه بصفته حاميًا للوطن العراقي ومدافعًا عنه[30].

29 يوسف الآغا، **حزب الله، التاريخ الأيديولوجي والسياسي (1978-2008)**، ترجمة نادين نصر الله (بغداد/ بيروت: دراسات عراقية، 2008)، ص 66 - 70، 99.

30 على هذا النهج انظر مثلًا: عباس العزاوي، "الحشد الشعبي المقدس خيارنا الوحيد"، وكالة اوروك نيوز، 2015/5/9، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lmLv8A
انظر كذلك: قصيدة انتشرت للشاعر الشعبي العراقي محمد الأعاجيبي يقول إنه يرد فيها على من يسيء للحشد: "إنه الحشد المقدس .. احترم لاجيك لمحمد الأعاجيبي"، يوتيوب، 2015/6/4، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2k1uzDB

2. الحشد (الحامي)

على الرغم من أنّ جزءًا أساسيًا من جاذبية الحشد الشعبي تعود إلى توفيره الحماية للشيعة الذين يعاديهم ويستهدفهم تنظيم الدولة أكثر من غيرهم لأسباب الخلاف العقائدي المعروف، فإن خطاب فصائله يقوم على أنها تدافع عن السنّة والشيعة وكل المكونات الأخرى، بل إنّ فصائل الحشد التي تقف موقفًا معاديًا لدول الخليج العربي متهمًا إياها بدعم جماعات سنّية متشددة في سورية والعراق تدعي أيضًا أنها تحمي دول الخليج من خطر تمدد تنظيم الدولة[31].

وفي إطار نقطة الحماية التي توفرها الجماعات المسلحة غير النظامية وغير التابعة رسميًا للدولة، فإن هناك فارقًا جديرًا بالاهتمام برز بعد سقوط الموصل. ففي أثناء سنوات العنف الطائفي المنفلت الذي ضرب العراق خلال الفترة (2006-2008)، لم تتمتع الميليشيات الشيعية التي تصدرها حينذاك "جيش المهدي" التابع لمقتدى الصدر بثقة تامة من أفراد الطائفة الشيعية، بل إنّ قطاعًا واسعًا نظر إليها وإلى ممارساتها باستياء. وهذا أمر شجع المالكي على ضربها بشدة في عمليات عسكرية كان أولها وأهمها عملية "صولة الفرسان" في البصرة عام 2008. وقدم المالكي ذلك الإجراء على أنه إعلاء لهيبة الدولة وبسط لسلطتها. أمّا في أزمة سقوط الموصل وما بعدها، فقد تبوأت المجاميع المسلحة الشيعية مكانًا فريدًا لدى قطاعات واسعة من الشيعة التي باتت تؤمن بدورها بصفتها حامية لهم. وعلى المستوى الشعبي، يمكن رصد تعابير أصبحت شائعة لوصف قادة تلك المجاميع، مثل "تاج الراس" و"حامي العرض" وما شاكل ذلك.

أهم قادة الحشد الشعبي

1. هادي العامري
أمين عام منظمة بدر – الجناح العسكري

شُكّل فيلق بدر أثناء الحرب العراقية-الإيرانية، وقاتل مع القوات الإيرانية ثم استمر في القيام بنشاطات مسلحة حتى سقوط النظام العراقي عام 2003. سبق تشكيل فيلق بدر قيام حزب الله اللبناني، وهما يشتركان في العلاقة القوية مع الحرس الثوري الإيراني نفسها، وكذلك الخطوط الأيديولوجية. ولكن مع عودة مقاتلي بدر إلى العراق، اندمج مقاتلوه في الحياة السياسية التي كانت ترعاها سلطات الاحتلال الأميركي، وأعلنوا تحولهم إلى منظمة سياسية مدنية.

31 "التسجيل الكامل لمداخلة السيد هادي العامري خلال لقاء رئيس الوزراء حيدر العبادي"، يوتيوب، 2015/4/12، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kIxXr9

لكنّ جهات سنّية وجهت اتهامات لبدر بالقيام بتجاوزات وأعمال عنف واغتيالات بعد سقوط النظام العراقي عام 2003[32].

كشفت أزمة الموصل أنّ لبدر، والتي قالت لسنوات إنها باتت منظمة مدنية، جناحًا عسكريًّا. أعلن عنه، واستلم أمينها العام هادي العامري - وقد كان يشغل منصب وزير النقل في حكومة المالكي الثانية (2010-2014) - قيادة هذا الجناح الميدانية. تعززت شعبية هادي العامري بوضوح، وقد مثلت حالته نموذجًا مهمًا لرصد اتجاهات الرأي العام ومزاجه فيما يتعلق بعلاقة السياسة والساسة بالحشد الشعبي. فقد هزت وزارة النقل قبيل سقوط الموصل بأسابيع فضيحة كان بطلها ابن الوزير العامري الذي فاتته طائرة متجهة إلى بغداد من مطار بيروت، فاستغل نفوذه وأمر سلطات مطار بغداد بعدم السماح لها بالهبوط، فاضطرت إلى العودة إلى بيروت. انصب الغضب الشعبي على العامري، لكنّ هذا الغضب اختفى تقريبًا كله، حينما استلم العامري القيادة الميدانية لمجموعته بعد سقوط الموصل، وأصبح واحدًا من أكثر السياسيين شعبية في الوسط الشيعي[33].

2. أبو مهدي المهندس نائب رئيس هيئة الحشد الشعبي

كان أبو مهدي المهندس، واسمه الحقيقي جمال جعفر الإبراهيمي، قائدًا سابقًا لفيلق بدر في إيران وعاد مع العائدين بعد 2003، إلّا أن دوره السابق كان مثيرًا للجدل؛ إذ اتهمته الولايات المتحدة بالقيام بنشاطات إرهابية ضد أهداف كثيرة أثناء إقامته في الكويت بعد هربه من العراق في أوائل ثمانينيات القرن الماضي. ومن الاتهامات التي وجهت إليه الضلوع بتفجير السفارتين الأميركية والفرنسية في الكويت، ومحاولة اغتيال أمير الكويت في الثمانينيات، حينما كانت تدعم العراق أثناء حربه مع إيران (1980-1988). انتخب المهندس عضوًا في البرلمان العراقي عام 2005، لكنه لم يتمكن من حضور الجلسات؛ لأنه كان مطلوبًا للسلطات الأميركية التي كانت تسيطر على المنطقة الخضراء في بغداد حيث مقر البرلمان[34].

بعد انسحاب الأميركيين، أصبح دور المهندس أكثر فاعلية، وخصوصًا في علاقته مع المالكي والطبقة السياسية، لكنه استمر في العموم في التحرك في الظل بعيدًا عن الإعلام، حتى جاءت لحظة سقوط الموصل، فقد تصدر المهندس عملية التحرك للتصدي لاقتراب مقاتلي تنظيم الدولة من بغداد[35].

امتلكت الفصائل الرئيسة في الحشد الشعبي، والتي أشرنا إلى ما تمتعت به من الإمكانات والدعم سواء من إيران أو من حكومة المالكي على مدى سنوات وقبل أزمة الموصل، أذرعها الإعلامية من محطات فضائية ووسائل إعلام أخرى. ومع جيشان المشاعر الشعبية التي استفزتها اندفاعة مقاتلي تنظيم الدولة، امتد تأثير الحشد إلى وسائل الإعلام الأخرى. وعندما لم يرض أبو مهدي المهندس عن جزء من تغطية قناة **العراقية** المملوكة للدولة وشبه الرسمية، وهي المتهمة أصلًا بكونها محابية للحكومة وللقوى الشيعية، وجه لها نقدًا علنيًا قاسيًا متهمًا إياها بتلميع صورة الأميركيين[36]. فزاره وفد من كادر القناة لتأكيد تأييدهم للحشد[37].

كما أنّ أبو مهدي المهندس كان الأكثر وضوحًا في مهاجمة الدور الأميركي في العراق، بل وهدد السفير الأميركي واتهمه بإثارة الرأي العام ضد الحشد الشعبي كما سبقت الإشارة[38].

---

32 "فيلق بدر يصدر قائمة بأسماء مستهدفين"، مفكرة الإسلام، 2010/5/16، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kIh6EZ
حول الاتهامات الأخيرة لمنظمة بدر وهادي العامري، انظر: منظمة هيومان رايتس واتش، "العراق - المليشيات تصعد من انتهاكات قد يرقى بعضها إلى جرائم حرب، أعمال قتل وخطف وإخلاء قسري"، 2015/2/15، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2jXpMDe
وهي اتهامات تكررت، بينما تكرر نفي منظمة بدر لها، انظر مثلًا: "النائب والقيادي في منظمة بدر محمد ناجي: الاتهامات التي وجهتها هيومن رايتس وتش للحشد الشعبي كاذبة وجزء من التسقيط السياسي للنيل منه"، شرقية نيوز، 2016/2/1، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lkvJvM

33 "نجل وزير عراقي "يجبر" طائرة لبنانية على العودة إلى بيروت"، بي بي سي عربي، 2014/3/6، شوهد في2017/2/8، في:
http://bbc.in/2kMzvjV

34 انظر (على الموقع المؤيد للحشد الشعبي ولرئيس الوزراء السابق نوري المالكي): "أبو مهدي، شيخ المجاهدين ومهندس التحرير"، موقع المسلة،2016/2/7، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2khpKqH
كذلك انظر: "تقرير أبو مهدي المهندس #تلفزيون_الخليج"، يوتيوب، 2015/1/9، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lkAntP
ولمعلومات أكثر من المصادر الأميركية عن المهندس، انظر:
Michael Gordon & Bernard Trainor, *The Endgame, The Inside Story of the Struggle for Iraq, from George Bush to Barak Obama* (New York: Pantheon Books, 2012), pp. 103-104, 155, 327-328, 706.

35 انظر: "ساعة حوار تقديم محمد الخزاعي مع أبو مهدي المهندس - نائب رئيس هيئة الحشد الشعبي"، يوتيوب، 2015/11/4، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kNEccW

36 مهند آل كزار، "أبو مهدي المهندس: قناة العراقية 'مضللة' وتلمع الأميركان وتغبن الحشد الشعبي"، السفير نيوز، 2015/10/19، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kRCM17

37 "لقاء أبو مهدي المهندس مع الإعلاميين لقاء كامل"، يوتيوب، 2015/11/2، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kCMcLF

38 "كلمة أبو مهدي المهندس ضد التدخل الأمريكي"، يوتيوب، 2015/10/15، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kNYPpn

3. قيس الخزعلي: أمين عام عصائب أهل الحق

مثل قيس الخزعلي رمزًا للانشقاق الأول والأهم عن التيار الصدري. وقد رعت إيران انشقاقه ودعمت تنظيمه الذي ارتبط بالحرس الثوري الإيراني. فقام أثناء الاحتلال الأميركي للعراق وبدعم إيراني مباشر بعمليات نوعية ضد الأميركيين، ثبتت فيها كفاءة مقاتليه وحسن تدريبهم وتجهيزهم[39]. يُقدم الخزعلي في الفضائية التي تتبع لجماعته وفي إعلام الحشد الشعبي عمومًا بصورة جذابة بالمعايير العراقية؛ إذ لم يعد يقتصر على لباسه الديني التقليدي من عباءة وعمامة، بل بدأ يظهر بصورة متزايدة رمزًا للشباب المقاتل ببدلة الكوماندوس ونظارة شمسية لامعة، أو بالزي العربي التقليدي في أماكن أخرى ويغدق عليه أنصاره صفات المديح[40].

تأثير سقوط الموصل في ديناميكية العلاقات السياسية - الطائفية

1. كردستان

مثّلت أزمة سقوط الموصل شرخًا جديدًا في العلاقة بين الشيعة والكرد في العراق؛ فقد تبادل المالكي ورئيس إقليم كردستان مسعود البارزاني الاتهامات بالمسؤولية حول سقوط المدينة المتاخمة لإقليم كردستان. وكان المالكي قد أعلن قبل ذلك وفي سنواته الأخيرة المليئة بالأزمات عن نهاية التحالف الشيعي - الكردي الذي نسج منذ أيام معارضة نظام الرئيس السابق صدام حسين، واستمر بعد إطاحته عام 2003، مشكلًا ملمحًا مهمًا للسياسة العراقية، ومؤثرًا تأثيرًا فعالًا في الطريق التي سارت فيها السياسة منذ عام 2003[41].

سارع البرزاني بعد أيام من سقوط الموصل بالدعوة إلى تنظيم استفتاء حول انفصال الإقليم واستقلاله عن العراق؛ إذ قامت طروحاته إضافة إلى المطلب التاريخي الكردي بالاستقلال، على النأي بالنفس عن الصراع الشيعي الكردي الذي ضرب الجزء العربي من العراق[42].

حشدت مضاعفات ما حصل في الموصل آراء كثيرة من جهات شيعية فاعلة ضد البرزاني في أكثر من موقف منذ عام 2014؛ فقد انتقد هادي العامري قوات البيشمركة الكردية متهمًا إياها بأنها قوات "كارتونية"، هربت أيضًا حينما تقدم مسلحو تنظيم الدولة على مناطق كانت فيها. أمّا قيس الخزعلي، فتصدر المواجهة الكلامية مع البرزاني، بل وهدد علنًا بمواجهة أعنف قد تأتي في المستقبل[43].

2. الحشد والسنّة

لا تهاجم خطابات قادة الحشد والمتحدثين باسمه ومواقعه الرسمية السنّة على أساس هويتهم، بل تشدد على أنّ الحشد يدافع عن مناطق السنّة قبل الشيعة. وفي الحقيقة، فإن بعض الفروع المحلية لعشائر سنّية كانت تقاتل مع مجاميع الحشد، لكنّ معظم الممثلين السياسيين للسنّة ووسائل الإعلام التي تمتلكها جهات أو شخصيات سنّية اتخذت موقفًا حذرًا ومحذرًا من دخول الحشد إلى مناطقهم[44].

من الصعب الحكم على موقف سنّي جماعي بعد أزمة سقوط الموصل؛ فقد تشتت المجتمع السنّي في العراق، على العكس تمامًا تقريبًا من المجتمع الشيعي الذي توحد على خلافاته خلف تضامن مذهبي - وطني، تقوم منطلقاته على رفع شعار وحدة العراق والعمل تحت مظلة الدولة؛ ولكن تحديدًا الدولة التي تهيمن على مراكز القرار فيها قوى شيعية، في حين تخبط القرار الإستراتيجي السنّي بين تبني أطروحة العراق الموحد أو الدعوة إلى مشاريع إقامة أقاليم فدرالية أو إقليم فدرالي سنّي أو الانفصال[45].

وقد جاءت دعوة قوى سنّية مؤخرًا إلى الاستعانة المتزايدة بالدور الأميركي، بل والترحيب بتدخل أميركي بري تذكيرًا بسيناريو عكسي؛

---

39 Gordon & Trainor, pp. 312 - 328.

40 انظر تمجيدًا للخزعلي وصورته وتحركاته، في: "جولة سماحة الشيخ قيس الخزعلي في عدد من المواكب الحسينية أثناء مشاركته في زيارة الأربعين"، يوتيوب، 2015/12/2، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lja06L
وكذلك: "ويانه قيـــس الخزعلي 'أبطال عصائب أهل الحق' شاهد مونتاج رائع"، يوتيوب، 2015/8/27، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kIkQ9w

41 "التحالف الكردستاني: المالكي سبب تفكك التحالف الشيعي الكردي.!!"، وكالة سومر الإخبارية، 2014/10/11، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2jwTZtO

42 أزاد جمكاري، "البارزاني يدعو برلمان كردستان لتحديد يوم الاستفتاء"، آرا نيوز، 2014/7/3، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2jkjEsm

43 "قيس الخزعلي: الحشد سيدخل كركوك متى ما شاء والبارزاني سيفر من أمامهم"، يوتيوب، 2015/2/15، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kRUBgI

44 انظر مثلًا تصريح المتحدث باسم التكتل السنّي الأكبر في البرلمان العراقي، اتحاد القوى العراقية، الدكتور ظافر العاني بأن معركة تحرير مدينة الرمادي ذات الغالبية السنّة كانت (نظيفة)، لأن الحشد الشعبي لم يشترك فيها. انظر التصريح كاملًا في: "العاني: عدم مشاركة الحشد الشعبي في تحرير الرمادي جعل المعركة نظيفة"، السومرية نيوز، 2015/1/24، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kImdoO

45 للاطلاع على وجهة نظر سنّية للوضع الحالي انظر: عبد الجبار الجبوري، "أزمة السنّة في العراق"، ميدل ايست أو نلاين، 2016/1/23، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2lf6vSS

فقد نادت قوى شيعية، قبل مئة عام وبعد تأسيس الدولة الحديثة وإحساسهم بسيطرة قوى سنّية على الحكم، بعودة الحكم البريطاني المباشر الذي كانوا قد ثاروا عليه كما ثار السنّة على الاحتلال الأميركي[46].

وفي العموم تضاربت أيضًا الروايات حول التعامل مع السكان المدنيين السنّة الذين ينزحون من مناطقهم؛ ففي حين يوكد الحشد أنه لا يميز ضدهم ويريد إشراكهم، يشتكي سياسيون سنّة من أنّ الحشد ينفذ مخططًا للتغيير الديمغرافي في مناطق السنّة التي ينشط فيها[47].

الاستنتاجات

شكلت فتوى المرجع الأعلى الشيعي علي السيستاني العلامة الأهم والأشد تأثيرًا لخطاب الجهات والقوى الشيعية في العراق، حتى تلك التي لا تتبع مرجعية السيستاني من الناحية الدينية. ويعود هذا إلى أسباب عديدة أهمها أن الخطر الذي أحس به المجتمع الشيعي، خصوصًا في العراق بعد احتلال تنظيم الدولة للموصل ومناطق أخرى بسرعة، كان خطرًا داهمًا عامًا وجوديًا، يهدد المراكز السكانية الشيعية بخطر التعرض للعنف الجماعي، ويهدد بالخراب المزارات التي يقدسها الشيعة وتضم مراقد ائمتهم، ولكنه يهدد أيضًا سيطرة الأحزاب الشيعية على حكم العراق.

> بعد سقوط الموصل، أصبحت القوى المسلحة الشيعية أكثر صراحة وتباهيًا في إعلان ارتباطها بإيران وبالحرس الثوري الإيراني

يمتد تأثير السيستاني في اتجاه عمودي في عموم الجمهور الشيعي، أمّا سياسيًا وعلى الرغم من ابتعاده عن التدخل المباشر في السياسة، فإن له تأثيرًا كبيرًا في العملية السياسية في العراق، ومباركته رئيسة لأي عملية قرار مصيري أو تحول مهم في قمة السياسة.

لقد هز تنظيم الدولة الرأي العام العالمي، ببروزه خطرًا أكبر على السلم، قادمًا من منطقة تعصف بها الخلافات الشيعية والسنّية. وفي المقابل رأت قوى رئيسة عالمية في خطاب السيستاني أملًا في صوت إسلامي مغاير وشريك في مواجهة الفكر المتشدد، خصوصًا أن هذه القوى تراهن دائمًا على تمايز السيستاني عن المدرسة الإيرانية وعدم تبنيه لنهج ولاية الفقيه السياسي. ومن المهم هنا الانتباه لزيارة الأمين العام للأمم المتحدة بان كي مون للسيستاني في بيته؛ إذ سمح السيستاني وفي بادرة نادرة بالتقاط صورة له مع ضيفه ونشرها، وكذلك إشادة كثير من المسؤولين الأميركيين بالمرجع الشيعي، مع أن السيستاني رفض على الدوام استقبال أي وفد أميركي رسمي[48].

بناء على هذا، كان من المنطقي أن تعتمد القوى الشيعية على محاولة التوحد والالتفاف خلف عناوين كبيرة وتجاوز الخلافات الداخلية، والعنوان الأكبر هو مرجعية السيستاني.

وفيما يخص الهوية الوطنية، فالالتفاف حول السيستاني وخطابه الذي يراعي أن العراق لا يعيش فيه الشيعة وحدهم، تأتي معظم الرسائل بصيغة وطنية جامعة ولا تحوي تعابير شيعية، خاصة في الجزء السياسي من خطبة الجمعة، وهي كما أو ضحنا وسيلة التواصل الإعلامي الأساسية للمرجعية.

وفرت أزمة الموصل أيضًا كما بيّنا صعودًا لظاهرة الجماعات المسلحة، وهي إن قدمت نفسها باسم الحشد الشعبي وفي إطاره، فإن مشروعها الواضح والاسم المفضل لها هو المقاومة الإسلامية، في محاكاة للإطار الذي تحرك فيه حزب الله على الساحة اللبنانية والعربية والإسلامية.

بعد سقوط الموصل، أصبحت القوى المسلحة الشيعية أكثر صراحة وتباهيًا في إعلان ارتباطها بإيران وبالحرس الثوري الإيراني، واستمالت معها قطاعات مهمة من الرأي العام (الشيعي) وخصوصًا الشاب بخطابها القوي المتصدي للخطر الذي يمثله تنظيم الدولة[49]. لذلك، فإن تأثير الدعاية السياسية لهذه التنظيمات من المتوقع أن يستمر ويتصاعد في المستقبل، سواء إذا استمر خطر تنظيم الدولة أو انحسر؛ ذلك أن هذه القوى تمضي في عملية بناء السرديات والرموز التي

46 إسحاق نقاش، **شيعة العراق**، ترجمة عبد الإله النعيمي (دمشق: المدى سورية، 2003)، ص 125.

47 "براء الشمري، "تغيير ديمغرافي في العراق برعاية 'الحشد الشعبي'"، **العربي الجديد**، 2015/10/3، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/1VxuWBN

48 انظر نص تصريحات أمين عام الأمم المتحدة السابق بان كي مون في النجف بعد لقائه السيستاني:
"Secretary-General's Remarks to Press in Najaf, Iraq," UN, 242014/7/, accessed on 82017/2/, at: http://bit.ly/2kCMcv6

49 شاهد مثلًا تصريح أحد المتحدثين باسم الحشد الشعبي، يفخر فيه بالارتباط بالجنرال قاسم سليماني، قائد فيلق القدس في الحرس الثوري الإيراني: "ناجح الميزان: لا يشرفني سليماني ... وكريم نوري يرد: أنت يشرفك البغدادي وأنا يشرفني سليماني"، يوتيوب، 2015/3/18، شوهد في 2017/2/8، في:
http://bit.ly/2kmVYDl

تنتج من هذه المواجهة العسكرية. المهم هنا أن هذه القوى - وكما هي الحال في لبنان - تدعي أيضًا تمثيلها للهوية الوطنية العراقية في خطابها، بل إنها باتت أكثر تأزمًا في هذا الادعاء وعدم تقبل القوى التي تعترض عليه. وباتت المقاومة والحشد المظلة الثورية التي توفر مع فتوى السيستاني (المشروعية) التي تتعامل بها هذه القوى مع معارضيها. وعلى الرغم عدم تأييد مرجعية السيستاني التقليدية لهذا النهج، فإنه من غير المتوقع أن يسحب فتواه أو يغيرها في ظل أوضاع استمرار تهديد تنظيم الدولة.

أدت أزمة سقوط الموصل إلى تعرض الأحزاب السياسية الشيعية التقليدية التي تهيمن على الساحة منذ عام 2003 لهزة كبيرة؛ إذ تصاعدت مشاعر الحنق الشعبي من الفشل المركب السياسي - الأمني الاقتصادي، وارتدت الجماهير الشيعية إلى ملاذات خطاب مرجعية السيستاني، وإلى ما بدا أنه النقاء المبدئي لمقاتلي الحشد الشعبي مهما وجهت إليهم خاصة من أطراف غير شيعية. أتت استجابة هذه القوى في إطار الانضمام إلى الحشد بتشكيل أو إعادة تنظيم أو إعلان لجماعات مسلحة مثل (سرايا عاشوراء التي شكّلها المجلس الأعلى الإسلامي بزعامة عمار الحكيم، أو سرايا السلام التي شكّلها مقتدى الصدر). كما أن رئيس الوزراء السابق نوري المالكي الذي هزم الجيش العراقي تحت قيادته في الموصل استطاع وضع نفسه في مكان السياسي الأقرب إلى الحشد الشعبي، بتكرار ظهوره مع أبرز قادة الحشد في المناسبات العامة، وتقديم هؤلاء فروض الاحترام له.

من الواضح أن مجاميع الحشد الشعبي المسلحة سيكون لها دور كبير في أي عملية تغيير سياسي مقبلة في العراق، وأن الولايات المتحدة التي يصنفها الحشد الشعبي عدوًا له ستواجه مصاعب في أي عملية تدخل سياسي مقبل في العراق، إذا لم تصل إلى صيغ ترضي مجاميع الحشد.

أمّا الخطر الأكبر الذي يواجه العراق، فهو طبيعة العلاقة بين مكوناته بعد تحرير الموصل والمناطق الأخرى التي يحتلها تنظيم الدولة. فقد تعثر إقرار قانون الحرس الوطني الذي مثل في جزء منه وصفة تشريع وتشجيع للعمل (السني) المعادي لتنظيم الدولة، في صيغة تشبه صيغة الصحوات التي قاتلت تنظيم القاعدة في العراق واضعفته بشدة عام 2008، كما لم تتطور أي مبادرة واضحة للمصالحة الوطنية بين مكونات العراق السياسية والطائفية والمجتمعية. وعلى الرغم من التقدم العسكري الواضح للقوات العراقية منذ سقوط الموصل، فإن الأوضاع الموضوعية التي أدت إلى حدوث تلك النكسة ما زالت قائمة. وفي الوقت الذي يراهن خطاب القوى الشيعية عمومًا على أن اندحار تنظيم الجولة عسكريًا وتحرير المدن التي يحتلها سيعزز الشعور الوطني ويؤدي إلى استقرار سياسي، فإن ذلك ليس مضمونًا إذا لم توجد صيغة سياسية جديدة مختلفة عن تلك التي كانت موجودة في العراق في صيف عام 2014.

المراجع

العربية

الآغا، يوسف. **حزب الله، التاريخ الأيديولوجي والسياسي (1997-2008)**. ترجمة نادين نصر الله. بغداد/ بيروت: دراسات عراقية، 2008.

المياحي، عباس الزيدي. **السفير الخامس، استعراض لحياة ومرجعية الإمام الصدر والعلاقة بين الحوزة والجماهير**. بيروت، 2001.

نقاش، إسحاق. **شيعة العراق**، ترجمة عبد الإله النعيمي. دمشق: المدى سورية، 2003.

الأجنبية

Cockburn, Patrick. *Moqtada al-Sadr and the Fall of Iraq*. London: Faber and Faber, 2008.

Cohrane, Marisa. *Iraq Report 12*: *The Fragmentation of the Sadrist Movement*. Institute for the Study of War, Washington DC: 2009.

Gordon, Michael R. & Bernard Trainor. *The Endgame: The Inside Story of the Struggle for Iraq, from George W. Bush to Barak Obama*, New York: Pantheon Books, 2012.